وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب
منشورات الطفل
كتاب شهري للناشئة

يوزع مجاناً
مع مجلة
أسامة
العدد (٥٧)

حماة
مدينة أبي الفداء



إعداد : أحمد عكيدي

أحمد عكيدي

حمـــاة
مدينة أبي الفـداء

الهيئة العامة السورية للكتاب - منشورات الطفل

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٣م

الإشـــراف الطباعــي: أنــس الحســـن

الموقع الجغرافي والتاريخي

لمدينة أبي الفداء[(1)]

حماة هذه المدينة العريقة في سورية، وإحدى الحلقات



الهامة والمشرقة في السلسلة التاريخية المجيدة لسورية الحضارة والتاريخ، وتَتربّع على ضفاف العاصي مذ وُجد هذا النهر. فتعطرت بأريج أزهاره، وتوضأت بمائه الطاهر، لتمدّ يد العطاء، شمالاً إلى مدينة حلب، وجنوباً إلى مدينة ابن الوليد

(١) أبي الفداء: إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، صاحب حماة. مؤرخ جغرافي.

حمص، وشـرقاً إلى أعماق البادية وعاصمتها تدمر، وغرباً إلـى عروس السـاحل اللاذقيـة. فتزينت بحلـل العطاءات التـي تعكـس فـي ثناياها ألـوان قوس قـزح، ليرتسـم على شـفتيها سـنا الشـمس الصباحية، المرسـلة إليها من جبين البادية، التي توسـدت حماة على أطراف بردتها المنسوجة من أصواف الأغنام، ووبر الجمال، وشـعر الماعز الدافئ، كمـا تكللت هذه المدينة بغار الجبال السـاحلية الخضراء، وتلحّفـت بعبـاءة القطـن المنـدوف، التـي نسـجتها أيدي الكادحيـن في سـهل الغاب، وتحصّن هـذا الجمال ماضياً وحاضراً بأجمل القلاع الأثرية. فبقيت الشـواهد حية على مـرّ العصور، تحـدّث الناظر وتعـرّف الزائر مواطـن الفتنة والجمـال، وبقيـت الألياف والشـرايين مترابطـة فيما بينها يمـد الواحـد منها الآخـر بما يحتـاج، لتبقى هذه الشـجرة متكاملة النسغ، دائمة الاخضرار والعطاء.

وقد امتزج هذا الجمال بروح إنسانية، وعاطفة صادقة، ونفسٍ مرهفة الإحساس، وتذوّق حلوٍ لطعم الجمال

الحموي، فارتسمت الابتسامة اللطيفة على شفاه شعراء حماة، وعزفت على الأوتار قصائد وأغنيات تلوّنت بلون الزهور، ففاح عبقها ليعطر برائحته العالم كلّه، أنشدوا فأجادوا الإنشاد على موسيقا النواعير، فأخذت تتمايل هنا وهناك، وشرعت تهمس في الآذان، لتطرب النفس وترقص الأبدان.

الموقع الجغرافي:

تقع حماة في شمال سورية ضمن خط العرض (٧٠/ ٣٥) شمالاً، وخط الطول (٤٤/ ٣٦) شرقاً، وهي تبعد شمالاً عن دمشق (٢١٠) كم وعن حمص (٤٠) كم. وتبعد جنوباً عن حلب (١٦٥) كم وعن اللاذقية شرقاً (١٥٠) كم.

أما نهر العاصي الذي ينبع من سفوح جبال لبنان فهو يمرُّ بعد مدينة الرستن في واد عميق ضيق على شكلِ خانق مكونٍ من صخور كلسيةٍ قاسية، ويستمر في ذلك ماراً بمدينة حماة حتى يجتاز مدينة شيزر التاريخية، وقد ساعد

هذا الخانق على بناء سدَّي الرستن، ومحردة من جانب، ودعا الحمويين لابتكار النواعير من جانب آخر.

وتتربع حماة على ضفتي وادي العاصي الذي يشطرها إلى قسمين: يسمى الأول الحاضر ويقع شرقي العاصي وشماله، والثاني السوق ويقع غربي العاصي، وجنوبه، كما تتناثر بيوت المدينة على جانبي العاصي وتتسلق المرتفعات مشكّلة أحياءً جديدة على طريق حمص من الجهة الجنوبية المسماة بالضاحية، وعلى طريق حلب من الشمال حيث بنيت مساكن حديثة، بالإضافة إلى الجمعيات السكنية في الاتجاه الغربي على طريق الغاب وبالقرب من بلدة كازو.

وترتفع مدينة حماة عن سطح البحر وسطياً (٣٠٨) م، وتتفاوت مناسيب الارتفاعات بين مناطقها المختلفة لتبلغ نحو (١٥٠) م بين الأخفض والأعلى فيها، بينما تقوم القلعة في وسط المدينة ولها أهمية أثرية بالغة، لأنها تحتوي على آثار عصور ما قبل التاريخ، فترى من ذروتها حماة القديمة وطبيعتها الغافية بكل ما فيها من فتنة وألق.

ويجدر بنا أن نذكر أن الشريط الأخضر الذي يواكب مسيرة العاصي في المدينة قد أخذ يتقلص ليحل محله العمران الحديث مما يحرمها الجمال الطبيعي.

ومنذ مطلع القرن العشرين حتى يومنا هذا اكتسبت حماة اسماً جديداً اشتهرت به، وهو مدينة أبي الفداء، وتعود حكاية هذا الاسم إلى عام ١٩٢٢م عندما تأسس في حماة النادي الأدبي الذي ضمَّ نخبة من أدباء حماة ومفكريها الذين هدفوا من إحيائهم لاسم أبي الفداء إلى إذكاء الروح الوطنية في مقاومة الفرنسيين، ونشر لواء العلم والثقافة لينهض المجتمع، وسعوا إلى تجديد مرقد أبي الفداء ملك حماة ومؤرخها المشهور الذي يعدّ ظاهرة ثقافية، وحضارية متميزة في التاريخ العربي، فكان من ملوك حماة الأيوبيين العظام، لا بل مثّل حينها الشخصية الثانية بعد صلاح الدين الأيوبي(١).

---

(١) صلاح الدين الأيوبي: ولد في تكريت (العراق) وتوفي في دمشق، مؤسس الدولة الأيوبية، أكبر ملوك المسلمين على أيام الصليبيين.

قلعة شيزر :



كانت قلعة شيزر في القرن الحادي عشر مقراً للحكام العرب، وقد صمدت في وجه الهجمات الصليبية قبل أن يدمرها الزلزال ويقتل حاكمها وعائلته كلها. وفي عام ١١٥٧م خرّب التتار القلعة، ثمَّ رمَّمها السلطانان المملوكيان (الظاهر بيبرس وقلاوون). تقع القلعة فوق جرف صخري متطاول على جانب نهر العاصي، وهي تعود لعدة أزمنة من البناء، وقد انهارت أجزاء منها.

حماة: (القِدَمْ - النشأة)

أورد ياقوت الحموي[1] في (معجم البلدان) أنّ حماة (بالفتح بلفظ حماة المرأة، وهي أمّ زوجها... وحماة أيضاً: عصبة الساق)، كما ورد اسم حماة في التوراة باسم حمت الكبرى تمييزاً لها من حمت الصغرى في كيليكية. وذلك نسبة إلى حماة من أبناء كنعان الذي يُنسب بناؤها إليه.

في حين يذهب أنغولت[2] إلى أن تسميتها أتت من اسم أول ملك آرامي لها يدعى حماة، أما حمات أو حماث في اللغة الآرامية فهي بمعنى واحد، لأن مخرج التاء والثاء

---

(١) ياقوت الحموي:ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين، مؤرخ ثقة من أئمة الجغرافيين، ومن العلماء باللغة والأدب

(٢) أحد علماء الآثار الدنماركيين، ترأس بعثة التنقيب عن آثار مدينة حماة في الفترة من ١٩٣٢م – ١٩٣٨م.

واحد، واختصت حماة في الأولى، واختصت حمص (حمث) في الثانية،إذ كان يطلق عليها اسم صوبة حماة، وحماة من الاسم الآرامي من حصنٍ وقلعةٍ، وحماة من (حمث) السريانية أو (حَمّ) العربية، وتعني كلتاهما سَخَنَ أي صار حاراً، وحماة أيضاً من (حماة السريانية) و(حمة العربية) التي تعني حرارة وسخونة وعين ماء حارة أو معدنية كبريتية، كالحمّة قرب طبرية، وحمة الأردن، وحمَّانا في محافظة جبل لبنان، قضاء عاليه.

وتعدّ حماة ووادي العاصي من أقدم مواقع سكن الإنسان القديم في سورية، وقد عثر على مواقع فيها تعود إلى سورية القديمة السابقة[١].

فموقع (العشارنة) تسعة وثلاثون كيلو متراً شمال غربي حماة، وجنوب شرقي العشارنة يعدّ موقعاً من الدور الآشولي الأوسط، قد عُثر في هذا الموقع على أقدم النماذج

---

(١) الحوليات، مجلة تبحث في آثار وتاريخ الوطن العربي، تصدرها المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية.

الأثرية التي عرفت في الشرق الأوسط، منها فؤوس يدوية، وأدوات حجرية أخرى، وعثر في الموقع نفسه على أدوات تعود إلى عصر مندل الجليدي، وقد أثبتت التقارير التي رفعتها البعثات (الدنمركية) برئاسة هارولد أنغولت عام ١٩٣٢ - ١٩٣٨م التي جعلت همَّها التنقيب عن الطبقات المختلفة والعائدة لمختلف عصور المدينة، فتوصلت إلى مكتشفات يعود تاريخها إلى الألف الخامس قبل الميلاد، العصر الحجري الحديث، على حين يرى باحثون بأن حماة كانت مرتعاً خصباً للإنسان الحجري القديم. إذ اكتشف في حي الشريعة فكٌّ حيوان ضخم، درسه عالم المتحجرات الهولندي (نورمان) فقدّر عمره بـ(٧٥٠ ألف سنة) ومهما يكن من أمر فإن مرور نهر العاصي في منطقة حماة، ووقوعها بين سلاسل من المرتفعات الجبلية جعلها مكاناً للإنسان البدائي، ثمَّ للإنسان المتحضر والمستقر،

وكان ذلك في عهد (الآموريين)[1] الذين أرادوا مجابهة الغزوات المتلاحقة التي تتساقط عليها، فاضطروا إلى بناء مدينتين إحداهما في الشمال وهي حماة، والثانية في الجنوب وهي بعلبك[2]، وذلك نحو (٢١٠٠ق.م).

وبقيت حماة محطة لكل زائر وعابر فقال أحدهم:

كم من قبائل حطّت فيك عابرةً

وأنت خالدةٌ في مدرج الزّمنِ

حتى إذا جاءَكِ الإسلامُ مؤتلقاً

عانقتهِ كعناقِ الروح للبدنِ

فقد عرفت حماة في غابر عهود الإنسان الحجري، ومع

---

(١) الآموريين: شعب قديم ظهر في بلاد الرافدين والجزيرة العليا وبلاد الشام منذ أواسط الألف الثالث ق.م.

(٢) بعلبك، بالفتح ثم السكون، وفتح اللام والباء الموحدة، والكاف مشدّدة: مدينة لبنانية قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين الرخام لا نظير لها في الدنيا تبعد عن دمشق نحو ٨٠كم اشتُهرت بمهرجانها الفني السنوي.

مرور الزمن توسعت وامتدت وأضحت ذات مركز مهم، جذب إليها الطامعين من كل حدبٍ وصوب، وقد دلت الحفريات التي تمت في قلعتها الأثرية على أسس لبيوت مستطيلة الشكل، يعود تاريخها إلى الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد.

وإن من يقرأ سطور الآثار الحموية يقرأ التاريخ، ويقف مندهشاً لكثرة الدول والحضارات التي تعاقبت عليها، إذ إنها خضعت لحكم (العمالقة) وهم من قدماء العرب، أهل شمال الحجاز مدة من الزمن، ثمَّ هزمهم (الآموريون) عام (٢٦٠٠ق.م)، ثم جاءها (السومريون)، ومن بعدهم (الآكاديون) حتى أواخر القرن الثاني والعشرين ق.م.

وفي عام ٢٠٠٠ ق.م سيطر عليها (الحثيون) الذين آخوا (الآموريين) وتفاهموا وإيّاهم، وحافظوا معاً على استقرارها ضد اجتياح (الهكسوس) لها بعد اجتياحهم مصر، وبقيت حماة خاضعة لهم حتى عام (١١٠٠

تمثال أسبازيا وقد عُثر عليه في حماة



ق.م) حيث استولى عليها (الآراميون) فتابعت تطورها وازدهارها.

وقد دلت المكتشفات العائدة لهذه المراحل - في تنوعها وغزارتها - على ما وصلت إليه حماة في تطورها الحضاري، ثمَّ خضعت المنطقة لغزوات (الآشوريين)[1] بدءاً من عام (٨٥٤ ق.م) ولم يستطيعوا إخضاعها والاستيلاء عليها إلا في عام (٧٥٠ ق.م)، فأعملوا فيها يد الهدم والحرق. وأجبروا سكانها على الرحيل، وتعرف هذه المعركة تاريخياً باسم (معركة قرقر الثانية).

ثمَّ تهاوت أركان الآشوريين على يد الكلدانيين، وحكمها (نبوخذ نصر)[2] ثمَّ انهار حكم الكلدانيين،

---

(١) الأشوريّون إحدى الممالك التي حكمت في بلاد الرافدين وامتد نفوذها إلى مناطق في بلاد الشام.

(٢) نبوخذ نصر، ملك بابل، ورد ذكره في الكتاب المقدس (التوراة)، احتل فلسطين وخرب أورشليم وسبى اليهود في عام (٥٦٠ ق.م).

واستولى (كورش الفارسي)[1] على ممتلكاتهم كافة، ومنها حماة بعد أن أعمل فيها يد الحرق، وبعد اجتياز (الإسكندر المقدوني)[2] الأناضول، وتغلّبه على الفرس بعد معركة (ايسوس عام ٣٣١ ق.م) دخلت حماة تحت نفوذه، وبعد وفاته كانت من نصيب القائد (سلوقس نيكاتور عام ٣٠١ ق.م) واستمرت تحت سيطرة خلفائه (الهلنستيين) مدة لا بأس بها، استطاعت خلالها استعادة شيء من ازدهارها السابق، وفي هذه المدة تطورت الزراعة وفنون السقاية والري، وتمكن سكان حماة حينها من ابتكار أسلوب فريد في ضخ الماء من نهر العاصي، بواسطة دواليب خشبية تدور بقوة تيار الماء، أطلق عليها اسم (النواعير)، وقد أصبحت من مميزات المدينة، ولا تزال على دورانها حتى عصرنا الحاضر.

(١) كورش، قورش اسم لملكين من السلالة الأخمينية.

(٢) إسكندر المقدوني الكبير، الملقب بذي القرنين، ولد في مقدونيا.

وتمرُّ الأيام على تلك الفترة المزدهرة من عمر حماة، إلى أن كان عام ٦٤ ق.م حين دخلت مع بقية المناطق تحت الحكم الروماني، وظلت هذه الحال إلى أن أشرق نور الإسلام على ربوعها.

ومن الجدير بالذكر أن العرب في الجاهلية عرفوا حماة، وذكروها في بعض أشعارهم، فهاهو ذا (امرؤ القيس)[١] يعرِّج عليها وعلى شيزر حين قصد إمبراطور الروم طالباً المعونة من أجل الثأر لدم أبيه:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه

وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا

فقلت له : لا تبكِ عينك إنّما

نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

تَقطَّع أسباب اللّبانةِ والهوى

عشيةَ جاوزنا حماةَ فشيزرا

---

(١) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، أشهر شعراء العرب على الإطلاق في الجاهلية.

ومع عام (١٧ هـ/ ٦٣٨م) تدفقت عليها جحافل الفتح الإسلامي وجيوشه، فَفُتِحَتْ صُلحاً على يد الصحابي الجليل (أبي عبيدة عامر بن الجراح)[١] وقد جعل الخلفاء الراشدون حماة من أعمال جند حمص، واستمرت كذلك في عهد (الأمويين)، وحين انتقلت الخلافة إلى بني العباس (١٣٢ هـ/ ٧٤٩م) أصاب بلاد الشام نوع من الفتور لانتقال مركز الحكم من دمشق إلى بغداد، فتدهور شأنها.

وفي القرنين الأول والثالث الهجريين، اشتركت مع حمص في الفتن والحروب الأهلية الناجمة عن تأجج نار العصبيات بين (القيسيين واليمانيين).

وقاست من الطولونيين، ثمَّ دخلت في ظلّ (سيف الدولة الحمداني)[٢] وتبعت مدينة حلب، وذلك في منتصف القرن

---

(١) عامر بن الجراح بن عبد الله، صحابي، قرشي، فهري، من بني فهر.

(٢) علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي الربعي، الأمير صاحب المتنبي، ومالك حلب.

الرابع الهجري، وتوالى عليها الولاة والحكام، فأصبحت مركزاً لولاية يتبعها عدد من المناطق والمدن المحيطة، تختلف باختلاف الظروف والأحداث والولاة أنفسهم، غير أنّها حافظت على مكانتها كمركز تجاري مع الداخل، كما ازدادت أسواقها، وتوسعت أحياؤها توسّعاً ملحوظاً. على أنّها وصلت إلى ذروة العطاء والتقدم والعمران في عهد الملك (عماد الدين محمود بن نور الدين الزنكي) الذي حدث في زمنه زلزال عظيم (٥٥٢ هـ / ١١٥٧م) سُمّي (الزلزلة الحموية) ونجم عنه خراب وتدمير لمعظم أنحاء المدينة، شمل قلعتها الحصينة والعديد من مرافقها العمرانية والحضارية، وبنى الملك عماد الدين فيها الجامع والمستشفى المعروفين باسمه.

وقد اجتاحت الجيوش الصليبية ، في حملاتها العديدة مختلف مدن سورية وفلسطين، غير أن حماة وقفت سداً منيعاً تجاه الغزاة الصليبيين، فلم يستطيعوا دخولها.

وفي عام (٥٧٢ هـ / ١١٧٦م) استحوذ عليها السلطان

(صلاح الدين الأيوبي)، وقد ولّى عليها ابن أخته (تقي الدين عمر)[1] وأصبحت منذ ذلك التاريخ مركزاً لإمارة (أيوبية) وسادها استقرار وازدهار ملحوظان، كما أدّت دوراً في تاريخ العصور الوسطى للمنطقة.

ومن أبرز من تولاها الملك العالم، المؤرخ الجغرافي الشهير (أبو الفداء) عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين علي بن المنصور الأيوبي، وذلك في عام (٧١٠ هـ/ ١٣١٠م) وقد خلّدها في كتبه ومؤلفاته الكبيرة، وبقي فيها إلى أن توفي عام (٧٣٢ هـ/ ١٣٢١م) ودفن فيها، وأصبحت تقترن باسمه، فيقال مدينة (أبي الفداء)، ودخلت حماة من بعده في حوزة المماليك، فنالت في عهدهم حظاً موفوراً من العمران. وكان (هولاكو)[2] في القرن السابع الهجري قد دمّر وخرّب الكثير من عمران حماة.

(١) هو مؤسس مملكة حماة الأيوبية، وقد شبهه تاج الدين الكندي، جامع ديوانه ونديمه بـ (سيف الدولة الحمداني).

(٢) هولاكو بن تولوي بن جنكيز خان، كانت أمه مسيحية لكنه ظل متمسكاً بوثنيته شأن أجداده، كان شديداً على كل الأديان وخاصة المسلمين.

وفي عام (٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ م) دخلت في حكم العثمانيين، وصار يتولاها المتسلّمون والولاة، الذين يوظفهم ولاة طرابلس، أو دمشق، حسبما تكون حماة مرتبطة بهذه أو تلك، فنالها ما نال القطر السوري كلّه من الإهمال وسوء التدبير، ففقدت أهميتها وتناقص عدد سكانها، كما أصبحت في القرن الثامن عشر الميلادي تحت سيطرة البدو.

وحين تحررت البلاد السورية من الحكم العثماني، نعمت حماة كشقيقاتها بالحرية، ولكن ذلك العهد لم يطل، فدخلتها أرتال الجيش الفرنسي عام (١٩٢٠م) وعانت خلال ستة وعشرين عاماً من الأهوال والويلات ما تشيب لهوله الولدان.

وكان لها في كل ثورة، وكل انتفاضة، وكل معركة، الدور المشرف والعطاء السخي، إذ قدمت عشرات الشهداء

والتضحيات. وقف رجالها ونساؤها وقفة عملاقة، وأدّوا دوراً مهماً في مقاومة الاحتلال، حتى تم جلاء آخر جندي محتل عن البلاد في الساعة التاسعة من صباح الخامس عشر من نيسان (١٩٤٦م)، وجرى الاحتفال الرسمي صباح السابع عشر من نيسان (١٩٤٦م) بعيد الجلاء، وعُدّ عيداً رسمياً للجمهورية العربية السورية.

(وسارت حماة من جديد مع أخواتها، لتسطّر صفحة جديدة ناصعة من صفحات الاستقلال الوطني والتقدم نحو السيادة والمجد والحرية).

سورها وأبوابها:

(بني سور حماة الكبير في زمن الإمبراطور أنستاسيويس ما بين (٤٩١ـ٥١٨م) في أول سنتين من حكمه، لكنه تهدّم (بالزلزلة الحموية) من جانب، وعاديات الزمن من جانب ثانٍ، وهجمات الغزاة والهدم من جانب ثالث، حتى لم

يبقَ منه الآن سوى أمتار معدودة في منطقة (الشرفة)، وقد بني بجواره مسجد واتّخذ من حائط السور جدار استنادي له، وهذه البقية مكونة من أحجار كبيرة تدعمها روابط من الأعمدة، وهناك كتابة باقية.

ومن المعروف أن نور الدين محمود زنكي هو الذي جدد السور بعد زلزال عام (٥٥٢ هـ/ ١١٥٧م)، وتذكر كتب التاريخ أن لهذا السور عشرة أبواب، هي: (الغربي - المغار - النهر - القبلي - العُميان - العدّة - الجسر - حمص - النّقفي - الناعورة) وحين امتد عمران المدينة إلى حي السوق، أقيمت أربعة أبواب جديدة هي: (العرس - دمشق - طرابلس - البلد) على امتداد السور، والآن لم يبق من هذه الأبواب سوى أسمائها، فهناك أحياء (باب النهر - باب القبلي - باب طرابلس - باب الجسر) وليس فيها أيّ أثر للأبواب، وقد كان (باب البلد) آخر الأبواب إذ زالت معالمه في عام (١٩٦٠م).

أوابدها الأثرية:

يقوم في حماة اليوم عدد من الأبنية الأثرية الهامة من قصور ومساجد وكنائس وأسواق وحمامات (قال الشاعر وليد قنباز)[1]:

أنّى مشيتَ فللقصور طلاقةٌ
أو أين سِرتَ فللمساجد نورُ
وبكلّ مئذنة نداءٌ خالدٌ
يسمو به التهليلُ والتكبيرُ

وتلك حقيقة، فما من ركن في حماة أو منعطف إلا تصافح نظراتك آبدة أثرية، تتحدث عن الماضي والتاريخ بلسان طليق مبين، فلقد خلّفت الحضارات التي توالت على حماة آثاراً متعددة خالدة، وهي حلقة اتصال الماضي البعيد بالحاضر القريب، سلسلة تترابط فيها منذ نشأتها الأولى حتى يومنا هذا.

---

(١) وليد قنباز: شاعر وباحث سوري معاصر من مدينة حماة.

الأماكن الدينية ودور العبادة :

يتناثر في جنبات مدينة حماة العديد من المساجد والزوايا والتكايا والكنائس بعضها يرقى إلى القرن الأول الهجري، وبعضها الآخر وليد هذه الأيام.

المساجد:

هناك كثير منها وأهمها (الجامع الكبير) الذي يقف في مقدمتها، وهو يقع في حي المدينة، (وفيه تظهر آثار معمارية لحضارات كبرى متغايرة في اللغة والعنصر والدين وهي: اليونان - الرومان - العرب المسلمون)، فقد كان لليونانيين معبداً وثنياً، ثمَّ كاتدرائية كبرى للرومان البيزنطيين، فجامعاً إسلاميّاً في عام (١٧ هـ/ ٦٣٨م)، ومن آثاره الكتابة اليونانية المسطَّرة باثني عشر سطراً على الجدار الغربي من الحرم، والمئذنة الجنوبية بشكلها المربع وكتاباتها الكوفية، والمئذنة الشمالية بشكلها المثمَّن، وفيه

بيت المال (الخزنة) المشيدة على ثمانية أعمدة ذات تيجان يونانية، وأهمّ المعالم فيه المنبر الخشبي الذي صنعه (زين الدين كتبغا في سنة ٧٠١ هـ/ ١٣٠١م) وهو آية في الروعة والجمال من حيث حفره ونقشه وتطعيمه بالصدف المجزأ إلى أشكال هندسية دقيقة جداً).

يضاهيه بالصنعة والجمال تابوتا ملكي حماة (المنصور الثاني محمد ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م) وابنه (المظفر الثالث محمود ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٨م)، وهما مصنوعان من خشب الأبنوس النافر الحفر بأشكاله الأثرية الهندسية وزخارفه النباتية.

وثاني المساجد الأثرية هو (الجامع النوري) الذي شيّده مع المستشفى القائم بجنوبه مقابل (حي الكيلانية) على الضفة الغربية للعاصي (نور الدين زنكي ٥٥٧ هـ/ ١١٦١م) على أنقاض معبد وثني قديم، ويحتوي حرمه



على منبر أثري من الخشب المنقوش، وتعدّ زخرفته آية في الروعة والإبداع، وأما مئذنته السامقة فتتميز بشكلها المربع.

وتتناوب في بنائها مداميك الحجارة السوداء والبيضاء، محدثة أشكالاً هندسية، وتأتي قبابه الخمس لتتمَّ روعة هذا الجامع، فهي كبيرة ومختلفة في الشكل والحجم، وعلى جداره الشمالي ثلاث كتابات أثرية مهمّة، أوّلها باليونانية وتشيد بعظمة سكان المدينة وإبائهم وصلابتهم ضد المتسلطين الرومان، والثانية بالعربية منقوشة ضمن

لوحة مزخرفة بديعة فيها اسم الباني وتاريخ البناء، والثالثة بالعربية أيضاً، ويبدو أنّ الجامع كان مركزاً تقام فيه الحلقات العلمية، لطلاب منقطعين للدرس يُنفق عليهم من أوقاف المدينة.



وثالث هذه المساجد هو (جامع أبي الفداء) في محلّة (باب الجسر) على الضفة الشمالية من نهر العاصي، في موقع سياحي رائع جداً، وتزيّن واجهة الحرم ومحرابه فسيفساء صدفية بأشكالٍ زخرفية هندسية بديعة، وهناك عضادة رخامية مزدوجة بين النافذتين الشرقيتين تتشابك في زواياها الأربع (أفاع ثمان) تشكل بالتفافها

تضفيراً جميلاً رائعاً، ولهذا أطلقت العامة على المسجد اسم (جامع الحيَّات)، وفي صحن الجامع مئذنة، وغرفة سقفها قبة مضلعة تضم بداخلها ضريح الملك العالم وباني المسجد (أبي الفداء)، وسُمّي باسم جامع (الدهشة) لجمال بنائه وروعة موقعه اللذين كانا يدهشان الناظر المتأمل فيه، وقد وُجد في سجلات المحكمة الشرعية بحماة ما يشير إلى وجود أوقاف لهذا الجامع، في قرية (براق ١٥ كم جنوب حماة).

ولا ندري أهذه الأوقاف تعود لعهد أبي الفداء أم استُجدت بعد؟

وثمَّة مساجد عديدة أخرى في حماة مازالت شاهدة على المكانة العمرانية والثقافية والدينية التي تبوأتها المدينة عبر تاريخها الحضاري المديد مثل (جامع الحسين) الذي يقع تحت القلعة من الجنوب، وقد بُني في القرن الرابع الهجري، ثمَّ جدّده (نور الدين زنكي) بعد حادثة الزلزلة الحموية، وفيه قبتان رائعتان واحدة تعود إلى البناء القديم، والثانية إلى عهد تجديده، وفي الجانب الشرقي منه قبة تضم ضريحاً منسوباً إلى النبي يونس، عليه السلام.

الزوايا:

وهي لا تتعدى أصابع اليدين، وأهمها (الزاوية الكيلانية) وهي أبرزها وأروعها، بل هي من معالم حماة الكبرى، بناها (سيف الدين يحيى الكيلاني ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م) وتقع شرقي الجامع النوري على ضفة العاصي الشرقي، وبجانبها ناعورة الباز (الكيلانية) نسبة إلى الشيخ «عبد القادر الكيلاني».

التكايا:

وأهمها (التكية الهدائية) فهي صورة عن معاهد العلم في مدينة حماة، فقد وقَفَ البناء السيد (محمد أبو الهدى الصيادي)[1] ووضع حجر الأساس عام (١٣٢٥ هـ/ ١٩٧٠م) وبدأ البناء في العام نفسه، ولايزال تضاف إليه منشآت جديدة في كل عام، ويتميز بقبته السامقة

---

(١) محمد بن حسن وادي بن علي بن خزام الصيادي الرفاعي الحسيني، أبو الهدى، أشهر علماء الدين في عصره. ولد في خان شيخون (من أعمال المعرة). تعلم بحلب.

المرتكزة على أقواس حجرية أربعة، وهي منحوتة من الداخل نحتاً رائعاً، أمّا المنبر والمحراب فهما من الرخام الأبيض المحفور الذي نُقشَت فيه زخارف، وكتبت آيات من القرآن الكريم بخط ممتاز في واجهة المحراب، والبناء مربع الشكل، وفي شمال التكية باحة واسعة وضمنها حديقة، وعلى جوانب هذه الباحة تتناثر غرف معهد الروضة الهدائية الشرعي، ومهاجع النوم، والمطبخ، وغرف الإدارة، ويقوم هذا المعهد بتدريس العلوم الشرعية والعربية على مدى خمس سنوات، ينال بعدها الخريجون وثيقة النجاح التي تخولهم دخول الكليات التابعة لجامعة الأزهر في القاهرة.

أبْرز المباني الحضرية في المدينة

❖ القصور:

كانت في الماضي أكثر من أن تحصى، وقد أطنب الرحالة والمؤرخون في وصفها وتعداد أسمائها، وقد سَلِمَ لنا منها اثنان:

- أولهما: **قصر العظم**، وقد بناه (أسعد باشا العظم[1] في أثناء توليه متسلمية حماة عام (١١٥٣ هـ/ ١٧٤٠م)، وتابع البناء والتوسيع من بعده (منصور باشا العظم) وابنه (أحمد مؤيد العظم)، وأضاف إليه حمّام (المؤيدية) وألحق به البناة البساتين الجميلة، وأجروا الماء من ناعورتي المأمورية والجعبرية إلى كل ساحة من ساحاته الكبرى،

---

(١) أسعد بن إسماعيل بن إبراهيم العظم، صاحب القصر الأثريّ المعروف بدمشق (قصر العظم). كان والياً على دمشق ولقّب بصاحب الوزارة.



وإلى بحيراته الجميلة، وبركه البديعة، وتركه هؤلاء الثلاثة لأولادهم وأحفادهم فسكنوه حتى عام (١٣٣٩ هـ/ ١٩٢٠م)، إذ اشترته جمعية دار العلم والتربية، وجعلت منه معهداً للدراسة، وفي عام (١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٦م) استملكته المديرية العامة للآثار والمتاحف وحوّلته إلى متحف إقليمي لمدينة حماة ولا يزال.

- ثانيهما: **قصر الطيارة الكيلانية**، وقد بناه (الشيخ ياسين الكيلاني) عام (١١٢٨ هـ/ ١٧١٦م) ويعدّ من أجمل القصور التي شيدت في العهد العثماني، ولا تزال زخارفه

ونقوشه تأخذ بالألباب، وتستولي على مجامع القلوب، على الرغم من مرور مدّة ليست قصيرة على إنشائه قصراً لاستقبال الضيوف، واستملكت المديرية العامة للمتاحف والآثار هذا القصر، ويجري العمل في أركانه لترميمه وإظهاره بالمظهر اللائق.

❖ الخانات:

وهي كثيرة في حنايا المدينة، ونذكر منها اثنين:

- الأول: **خان رستم باشا،** الذي يعود تاريخ بنائه إلى عام (٩٦٤ هـ/ ١٥٥٦م) وقد أمر ببنائه (رستم باشا) في زمن السلطان (سليمان الأول العثماني)[١]. وعرف هذا الخان مدة من الزمن (بخان العسكر) حينما كان يُتّخذُ مقراً للجنود الخيالة في نهاية العهد العثماني، وبداية الانتداب الفرنسي، ويمتاز بمدخله الواسع وطراز بنائه الخاص، وله باب كبير فيه كوَّة صغيرة تسمى (الخوخة) وهي بويب

---

(١) سليمان الأول القانوني، السلطان العثماني العاشر.

لا يسمح بدخول الأشخاص إلا بصعوبة، وينفتح الباب الكبير على بوابة واسعة تطل عليها من الجهتين عدة غرف للبواب والحرس والانتظار، وتؤدي البوابة إلى فناء فسيح جداً، في وسطه بُني مسجد تقام فيه الصلاة، وحول الفناء غرف صغيرة متعددة، ولم يبق الخان على حاله القديمة، بل أضيف إليه طابقان ثان وثالث، وهو الآن مقر (لملجأ الأيتام الإسلامي).

- الثاني: **خان أسعد باشا العظم**، الذي يقع قرب باب البلد، وقد بناه أسعد باشا العظم عام (١١٦٢ هـ / ١٧٥١م) لنوم المسافرين وعابري السبيل، وأبرز مافيه طراز بنائه ومدخله وفناؤه الواسع، ويعرف كذلك باسم (خان العسكر) إذ اتخذته القوات الفرنسية ثكنة عسكرية داخل المدينة، وفي عام (١٩٤٦م)، جُعل مقراً للثانوية الصناعية، وفي هذه الأيام تهدمت أقبيته وغرفه الداخلية الترابية، فعمدت مؤسسة الأبنية المدرسية إلى بناء مجمَّع

تربويّ على أرضه الواسعة، وأبقت على الواجهة الأثرية لهذا الخان.

❖ الحمامات والآبار :

تضم حماة عدة حمّامات أثرية قديمة، ومن أبرزها: حمَّام الأسعدية، وحمّام الدرويشية، وحمّام السلطان، وحمّام المؤيدية، وفيها جميعاً نرى النقوش البديعة والقباب العالية المثقَّبة لدخول النور، والرخام الملون، والصور التزيينية، والبرك الجميلة بنوافيرها اللطيفة.

أمّا الآبار فهي كثيرة وأهمها: البئر الأرتوازية التي تقع في أقصى المدينة من الشرق، في منطقة تدعى المصيطبة، المتميزة بهوائها النقي، ومناخها اللطيف، وتعدّ هذه البئر محطة مائية علاجية من الطراز الأوّل لعدة أمراض، بعد تحليل مياهها في أكبر الجامعات العالمية، وبعد أن لمس مرتادوها فوائدها الصحية.

متنزَّهات وبساتين في حماة:

لقد كبر الحب بين العاصي وحماة، فتعانقا عناقاً أبدياً، فأنجبت الروح الصادقة والماء الطاهر فراديس خير وعطاء، وفي كل عام يأتي وحي الربيع خجولاً، ويهمس في أذنيها، ويمسح بيديه على الوجنتين، فتحمرّان، وتتلون حماة بألوان الأزهار والبراعم التي تفتحت على صدرها كفاتنة عذراء، تزّين ثوبها بأجمل حلّة خضراء يانعة، فترى الزوّار والمهنئين والسائحين فُرادى وزمراً، وقد اصطحبوا مآكلهم، فيمضون سحابة يومهم في أنس وطلاقة وبشر حول النواعير الأربع، وفي حديقة أمّ الحسن، وموقع باب النهر، والقلعة، ومرتفع البرتاوي، وبساتين الأعوجيات، وزور[1] الدفّاعي، وزور أرزة، وهي من أجمل اللوحات الطبيعية التي ما تزال يد الإنسان بعيدة عنها).

---

(١) الزور: هي المنطقة التي يشكّلها ازورار العاصي في مجراه غير المستقيم، فتسمّى الأرض المحصورة بين التفافاته زوراً.



وقد صوّرت أحاسيس الشاعر هذا الجمال فنطق اللسان، وقال:

هي الفراديس من حسنٍ ومن فتنٍ
إذا مشـيت بهـا أبصرتهـا ألقـا
نهـرٌ وزهـرٌ وأغصـانٌ وفاكهـةٌ
تَحـار من أي لـونٍ تمـلأ الحدقـا

وهذه الفراديس هي هبة نهر العاصي الذي تتميز ضفتاه بالخضرة اليانعة من منبعه إلى مصبه، والتي تتيه سحراً وفتنة وجمالاً في فصل الربيع خاصة.

❖ الأسواق في حماة :

تحفل كتب التاريخ بذكر أسواق حماة وتعدادها، وتبيان مزاياها، وهي إن لم تكن عامرة كأسواق حلب، فإنّها كأسواق حمص تحفل بشتى السلع والبضائع القيمة. وقد كان فيها في القرن السادس عشر الميلادي أسواق عديدة،

زيّ نسائي من المنطقة الوسطى

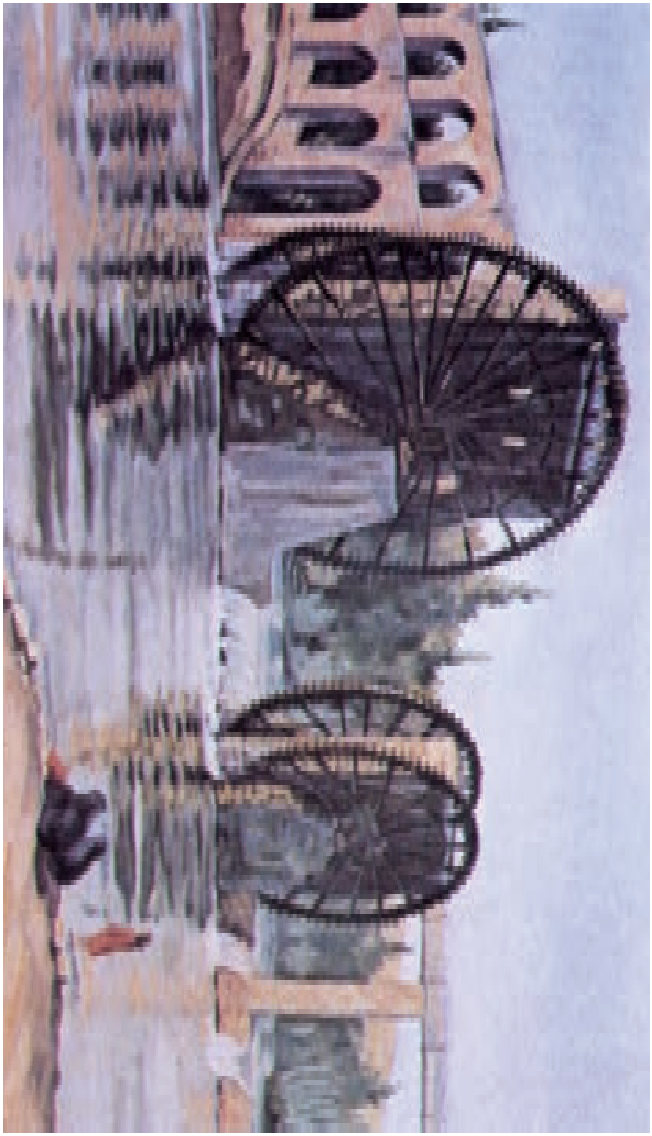


منها: سوق البندرة، وسوق الحطب، وسوق العدل، وسوق المنجدين، وسوق النجارين، وسوق الأساكفة، وسوق التجار، وسوق الدباغين، وبلغ عدد الأسواق في القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) أكثر من خمسين سوقاً، وكانت تتألف من قسمين: أسواق صناعية، وأسواق تجارية على مكانة كبيرة من الازدهار، على أنّ سوق المنصورية (سوق الطويل حالياً) تأتي في مقدمة هذه الأسواق، وهي الآن في منتصف المدينة، وتمتد من نهاية محلّة الدباغة حتى محلّة الموقف، وتتناثر على جانبيها عشرات الحوانيت المتلاصقة، وفي هذه السوق مختلف البضائع والسلع، فقد أنشأها ملك حماة المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر الأيوبي المتوفى (٦١٧ هـ/ ١٢٢٠م)، ورتب فيها الباعة فجعل أصحاب كل حرفة في جهة، وهناك سوق شعبية أخرى تُقام في يوم الخميس، ومنه أخذت اسمها سوق الخميس، حيث تعرض فيها مختلف أنواع السلع والبضائع والأطعمة.

حماة مدينة النواعير

النواعير الرمز والإبداع:

إنّ النواعير عنوان الطابع الزمني المديد لمدينة حماة، إنّها منذ فجر التاريخ تدور، ومازالت تدور حتى يومنا الحاضر، فإن زرت مدينة حماة، صافحت عيناك لوحات طبيعية نادرة، لامثيل لها في العالم كله، وفي مقدمتها لوحة النواعير، فهي تعبر عن مقدرة الإنسان العلمية في السيطرة على مصادر البيئة الطبيعية، وهي من أبرز منشآت حماة السياحية، وما من كتاب تاريخي، أو سياحي تعرّض لذكر حماة إلا أطنب في وصف النواعير وجمالها ومواقفها ومنظرها الفريد.



وفي تقويم البلدان (لأبي الفداء):

(حماة من الإقليم الرابع من الشام، بين حمص وقنّسرين، بفتح الحاء المهملة والميم وألف وهاء في الآخر).

والشيخ عبد الغني النابلسي يقول في أول زيارة له لمدينة النواعير:

انزل حماة التي ما مثلها بلدٌ

لكلّ دانٍ من الأهلين أو قاصي

ترقَّ قلباً لأحوال الغريب بها

حتى نواعيرها تبكي على العاصي

وفي البيت الثاني تورية حلوة فكلمة (العاصي) تحمل دلالتين مختلفتين، الأولى القريبة اسم فاعل من العصيان، وقرينتها البكاء عليه، والثانية المقصودة اسم النهر.

وهذا أحد الشعراء العرب الذين مرُّوا بحماة يتحدث

عن أصل الناعورة، فقد كانت شجرة تسقى ويتغنّى الناس بجمالها، أمّا الآن فالحال تبدلت، فيقول:

أيّها السائلُ عنّي

سلبوا العادةَ منّي

كنت أُسقى وأُغَنَّى

صرتُ أسقي وأغنّي

تلك هي النواعير المحرك الدائم الذي لايتوقف عن الدوران والعطاء ليلاً ونهاراً، والذي يهب كميات من المياه تفوق قدرة أيّ محرك آلي مهما تكن.

وقال ابن جزي: في هذه المدينة ونهرها ونواعيرها وبساتينها يقول الأديب الرحّالة «نور الدين أبو الحسن بن موسى بن سعيد العبسي العمّاري الغرناطي نسبة إلى «عمار بن ياسر»(١) رضي الله عنه:

(١) عمار بن ياسر بن عامر الكناني المدحجي العنسي القحطاني أبو اليقظان، صحابي، أحد السابقين إلى الإسلام.

حمى الله من شطي حماة مناظراً

وقفت عليها السمع والفكر والطرفا

تغنى حمام أو تميل خمائل

وتزهى مبانٍ تمنع الواصف الوصفا

وأشدو لدى تلك النواعير شدوها

وأغلبها رقصاً وأشبهها غرفا

تئن وتذري دمعها ، فكأنها

تهيم بمرآها وتسألها العطفا

والآن وبعد أن قرأنا شعراً جزلاً عن المدينة ونواعيرها الساحرة ، فلابدَّ لنا من التعرُّف على تلك النواعير التي اختصت بها حماة دون غيرها:

النواعير آلات مائية دائرية ذات حركة دائمة، وهي مكونة من أخشاب متنوعة في طولها وعرضها وحجمها، وترتبط جميعها بمحور خشبي ضخم (من خشب الجوز) يسمّى

القلب، وهو مرتكز على قاعدتين متوضعتين على قواعد حجرية قوية ثابتة، وللناعورة في نهايتها أخشاب معترضة تلتقي تيار الماء الدافق، فتتدافع بعضها وراء بعض، فتدور الناعورة على محورها باستمرار، وتنتظم على أطرافها صناديق خشبية متلاصقة لها فوهات جانبية، فحين تغطس في الماء تمتلئ به، وحين يصبح الصندوق في الأعلى يتدفق منه الماء إلى حوض واسع، ومنه يتسرب في قناة ذات قناطر متعددة ليسقي البساتين والحدائق حالياً، وفي الأمس القريب كانت حماة، بمن فيها وما فيها، تشرب من مياه النواعير.

وفي العادة يقام على مجرى العاصي سدّ حجري أو خشبي يحجب الماء ويجعله يتدفق سريعاً من فتحة خاصة بالناعورة، فيلتقي الفراشات (أخشاب الناعورة المعترضة) فتدور الناعورة.

أما اسمها فهو مشتق من نعيرها وهو صوتها، وذاك مأخوذ من (نعر الرجل/ صاح وصوّت، والنعير: الصياح، والصراخ في حرب أو شرّ. وامرأة نعّارة: (صخّابة، فاحشة). وقيل للدولاب: ناعورة وناعور لنعيره، ويُجمع على نواعير وناعورات.

وللنواعير في حماة لوحات طبيعية خمسٌ خالدات نادرة الوجود في العالم كله وهي:

اللوحة الأولى: (الأربع نواعير) التي يقع مقصف حماة الكبير إلى جوارها، فالكبرى: هي البشرية، والوسطى: البشرية الصغرى، والصغيرتان هما: العثمانيتان.

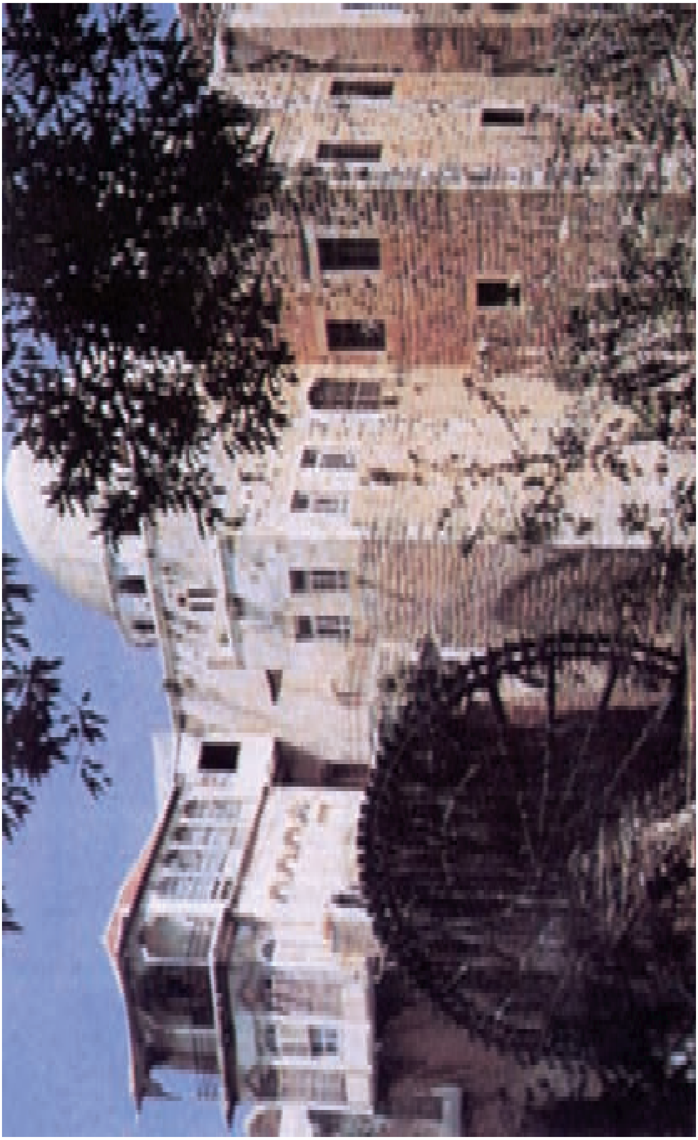
اللوحة الثانية: تقع في وسط المدينة جانب ساحة أبي الفداء (ساحة العاصي)، وتحتوي على ناعورتين من أروع نواعير حماة الأولى: هي الجسرية، والثانية: هي المأمورية، أهم نواعير حماة وأضخمها حجماً، وتزيد اللوحة جمالاً

وفتنة حديقة أم الحسن إلى شرقها، ومقصف الغزالة في جنوبها، وكثرة الجزر والشلالات التي يشكّلها نهر العاصي في هذه المنطقة الشاعرية، ولقد وقف عشرات من كبار شعرائها قديماً وحديثاً أمامها معجبين ومنطلقين من مشاعرهم وأحاسيسهم، حتى إنَّ أمير الشعراء (أحمد شوقي)[١] صرخ من شدة إعجابه بعد رؤيتها (ليت على النيل نواعير).

أما **اللوحة الثالثة:** فهي جسر بيت الشيخ، وهناك نقف أمام ثلاث نواعير تدعو للانبهار والدهشة والفتنة معاً، اسم الأولى الجعبرية، وتدعى الثانية الطيارة، والثالثة البازالكيلانية. وتتميز هذه اللوحة من غيرها بما يحيط بها من أوابد تاريخية، وآثار عريقة أبرزها متحف حماة «قصر آل العظم».

---

(١) أحمد شوقي: شاعر مصري كبير، أرسله الخديوي إسماعيل إلى فرنسا نظراً لتفوقه وذكائه، حيث اتصل بالمدنية الغربية وتأثر بها، بويع سنة ١٩٢٧م بإمارة الشعر في حفل عظيم.



اللوحة الرابعة: تقع شمال قلعة حماة في محلة باب الجسر، وتضم ثلاث نواعير هي: الدوالك - الخضر - الدهشة، ومن أهمها الدهشة التي تعطي مقداراً كبيراً من المياه رغم صغرها، وهذا ناجم عن سرعتها في الدوران، وكون صناديقها مزدوجة، وقد اشتهرت تاريخياً لقربها من جامع أبي الفداء.

اللوحة الخامسة: وهي باب النهر، حيث يأخذ نهر العاصي مداه في السير على هواه، فإذا به يخلّف جزراً هنا وشلالات هناك، وغدراناً في ناحية، وبركاً في زاوية، ويشرف على ذلك كله ناعورتان الأولى هي المحمدية، أكبر نواعير حماة من حيث القطر والارتفاع، والثانية صغيرة واسمها القاق، حيث يبدو ذلك جميعه منظراً لاتمل العين من الاستغراق في جوانبه وجزئياته، ولاسيما أن الخضرة تحيط به من كل أطرافه فتجعله صورة للطبيعة في عرسها الحالم.

تلك هي النواعير التي فتنت كل من رآها وسمع أنينها، وما تزال، فهذا (سوبرنهايم) في (الموسوعة الإسلامية) يقول:

(إنّ فيما اقتبسه الصليبيون من بلاد الشام صنع النواعير أيضاً، فأوجدوا في ألمانيا في واد صغير في فرانكفورت على مقربة من (بايروت) نواعير كالتي في حماة ما تزال دائرة).

وأمّا قصة الشعر مع النواعير فهي ذات شجون، فما من شاعر حموي، أو عربي زار حماة إلا نثر في رحابها بديع القول وجميل النظم، ولقد كُتبت عشرات المقالات بعنوان (النواعير في الشعر العربي).

فهذا الشاعر ابن نباتة المصري يقول:

وناعورة قالت وقد ضاع قلبها

وأضلعها كادت تعدّ من السّقم

أدور على قلبي لأني فقدته

وأما دموعي فهي تجري على جسمي

والشاعر الحظيري[1] يرى في الناعورة قصة الحب والبعد والألم فيقول:

---

(١) سعد بن علي بن القاسم الأنصاري الخزرجي الحظيري، أديب له شعر عذب، من أهل بغداد، كان وراقاً يبيع الكتب. له تصانيف وديوان شعر.

رُبَّ نـاعـورةٍ كـــأنَّ حبيبـــاً

فارقَتّهُ فقد غدت لي تحكي

أبـــداً هكــذا تئــنٌّ بشــجوٍ

وعـلـى إلفهـا تــدور وتبكـي

إن حماة مدينة قدمت ملوكاً شعراء، وقادة عسكريين لم يصرفهم عملهم عن تذّوق الشعر أو نظمه، ونلمح في «حماة» إبداعات العمارة وإنجازاتها التي حققت شهرة لا حدَّ لها، «فالنواعير» تعبر عن مقدرة الإنسان العلمية في السيطرة على مصادر البيئة الطبيعية، مما يحوّل حماة إلى كتاب جغرافي سحري وعجيب.

علّل البعض اسم العاصي بأن معظم الأنهار لا تحتاج سقاية الأراضي منها لدواليب بينما لايرضى العاصي بتقديم مائه، فالمرء يضطر أن يأخذه اقتداراً رغماً عنه وذلك بواسطة النواعير.

وثمَّة تعليل جغرافي عن سبب تسمية النهر، نرى فيه أكثر قرباً من الواقع ويتمثل ذلك في أن الاتجاه الرئيسي

لخط سير النهر هو من الجنوب باتجاه الشمال! خلافاً لمعظم الأنهار المعروفة في سورية، بل في معظم المناطق المحيطة بها التي يغلب على خط سير جريانها الاتجاه من الشمال إلى الجنوب! وكأن النهر بخط سيره الخارج عن المألوف قد تسمَّى بالعاصي.

كما ذكر اليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ) في كتابه البلدان «مدينة حماة قديمة على نهر يقال له الأرنط».

ومن الجدير ذكره أن نهر العاصي ينبع من هضبة اللبوة في الجزء الشمالي من سهل البقاع، ويبلغ طوله من منبعه إلى مصبه في مدينة أنطاكية على خليج السويدية (على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط) ٤٦٥كم، يروي في مساره سهول حمص، وحماة، وسهلي الغاب والروج وسهول لواء إسكندرون السليب.

حماة والعاصي والنواعير
في نصوص بعض الرحالة

قال مؤرخها أبو الفداء عنها: «حماة: من الإقليم الرابع من الشام بين حمص وقنسرين. بفتح الحاء المهملة والميم وألف وهاء في الآخر وحماة مدينة أولية، وهي من أنزه البلاد الشامية، والعاصي يستدير على عاليها من شرقيها وشماليها، ولها قلعة حسنة البناء مرتفعة وفي داخلها أريَحيَّةٌ على الماء وبها نواعير دون غيرها من بلاد الشام».

وقد وصف حماة الرحالة ابن جبير[١] سنة ٥٧٩ هـ/ ١١٨٣م قائلاً: «نجد حسنها كامناً فيها، حتى إذا مشيت فيها وتفيأت بظلالها، أبصرت بشرقيها نهراً كبيراً، تتسع في تدفقه أساليبه، وتتناظر بشطيه دواليبه، قد انتظمت

---

(١) أحد الرحالة العرب الذين كتبوا في وصف البلدان التي زاروها.



طريقه بساتين تتهدل أغصانها عليه، وتلوح خضرتها عذاراً بصفحتيه، يتسرب في ظلالها، وينساب على سمت اعتدالها، وبأحد شطيه المتصل بربضها مظاهر منتظمة بيوتاً عدة، يخترق الماء من دواليبه جميع نواحيها، فلا يجد المغتسل أثر أذى فيها، وعلى شطه الثاني المتصل بالمدينة السفلى جامع صغير قد فتح جداره الشرقي عليه طيقاناً تجتلي منها منظراً ترتاح النفس إليه، وتتقيد الأبصار لديه، وبإزاء ممر النهر بجوفي المدينة قلعة حلبية الوضع، وإن كانت دونها في الحصانة والمنع، سرب لها من هذا النهر ماء ينبع فيها، فهي لا تخاف الصدى، ولا تتهيب مرام العدى».

أما ابن سعيد المغربي (ت ٦٨٤ هـ) فقد عرّفها بقوله: «وحماة على مرحلة من حمص وهي من أنزه مدن الشام، ونهر العاصي شماليها، وعليه منار ونواعير والزوارق تتردد فيه بين البساتين..».

كما قال فيها الرحالة ابن بطوطة[1] عندما زارها سنة ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٥م: «ثمَّ سافرت منها إلى مدينة حماة إحدى أمهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة، ذات الحسن



الرائق، والجمال الفائق، تحفُّها البساتين والجنَّات، ويشقُّها النهر العظيم المسمَّى بالعاصي، وعليه النواعير

(١) من الرحالة العرب المشهورين له مؤلفات جغرافية هامة في وصف جغرافية العديد من البلدان وحياة السكان فيها.

كالأفلاك الدائرات، ولها ربض[1] سمي بالمنصورية أعظم من المدينة، فيه الأسواق الحافلة، والحمَّامات الحسان، وبحماة الفواكه الكثيرة ومنها المشمش اللوزي، إذا كسرت نواته وجدت في داخلها لوزة حلوة».

وأما شيخ الربوة فقد زارها سنة ٧٢٧ هـ/ ١٣٢٦م وفي حديثه عنها «ويرد إلى حماة أهل سائر البلاد المجاورة لها مثل حمص وشيزر وسلمية وكفر طاب وأبو قبيس ومصياف والمعرة وتيزين وبزاعة والفوعة وحلب، ويطلعون جميعاً إلى العاصي، ويضرب لهم أهل حماة على شطوطه خياماً، ويركبون في المراكب بالمغاني ويرقصون بفرح وسرور في المراكب ويمضي لهم ستة أيام لا يرى في الوجود مثلها..».

أما الرحالة «كبريت» فقد زار حماة سنة ١٠٢٩ هـ/ ١٦٢٩م ومن حديثه عنها «ولحماة النهر العاصي، قال في «الخريدة»: نهر حماة وحمص، مخرجه من قدس،

(١) ربْض: ما حول المدينة، وقيل هو الفضاء حول المدينة.

ومصبه البحر بأرض السويدية من أنطاكية، وسمي العاصي لأن أكثر الأنهار تتوجه إلى الجنوب وهذا يتوجه نحو الشمال».

ويقول الرحالة مونمارشيه[1] صاحب (الدليل الأزرق): (حماة لا يحتاج المتجول فيها إلى ركوب المركبة، فضياع الوقت لا يكاد يذكر، ناهيك أنّ الماشي يتملى أكثر بمشاهدة الطرق والقصور والنواعير والمساجد والجسور والحمّامات).

أما الرحالة فتح الله الصايغ الحلبي فقد زار حماة عام ١٨١٠م فقال:

«وأقمنا بعد ذلك في حماة نحو عشرين يوماً كل يوم كنا نتنزه وندور في أرجائها، وحقاً إنها بلدة التنزه، تشرح النفس، كثيرة المياه، فيها بساتين ونواعير، والعاصي يمر في وسطها، أهلها فصحاء، مهرة، شعراء، وأرباب فن

(١) مونمارشيه، رحالة فرنسي صاحب المرجع (الدليل الأزرق).

وأصحاب ذوق، بلد من بلاد الشام المشهورة بالجمال...».

وفي عام ١٨١٢م زار حماة الرحالة «بيركهارد» فحدثنا عنها بقوله: «تقع مدينة حماة على ضفتي العاصي. وقد بُني قسم منها على حافة تلة، والقسم الآخر في السهل، والأحياء المبنية في السهل هي حي الحاضر وحي الجسر وحي العليات وحي المدينة.

في وسط المدينة ساحة ترابية بنيت عليها القلعة قديماً. وقد نقلت حجارتها وموادها لبناء مساكن حديثة للناس. وهناك أربعة جسور داخل المدينة فوق مجرى النهر الذي يؤمن للمنطقة المرتفعة من المدينة عن طريق النواعير التي تحمل المياه وتفرغه أقنية حجرية مقامة على قناطر معقودة، تصل إلى مستوى الأرض المرتفعة.

وهناك جبل على مسافة ساعتين من حماة معزول وتربته طبشورية هو جبل الأربعين الذي يجري العاصي من

شرقه. و يروي نهر العاصي بساتين حماة، عندما يفيض شتاءً أو عن طريق النواعير إذا كانت أراضيها مرتفعة أكثر من مستوى النهر. وفي فصل الصيف تكون مياه النهر صافية...»

وقد وصف حماة الرحالة المصري (إدوار إلياس) الذي زارها في مطلع القرن العشرين بقوله: «وحماة مدينة جميلة عدد سكانها نحو ٦٠ ألفاً، ونهر العاصي يخترقها ويشطرها، وهي كثيرة البساتين والحدائق حتى إنَّ مجموعها ليعد متنزَّهاً يسرُّ الناظرين، في طرفها آثار القلعة تظهر بكل أحيائها وأجزائها المتعرجة التي ترويها السواقي المعروفة عندهم باسم ناعورة (ساقية) يأنس الناس إلى صوتها في الليل والنهار، وهي تدفع إليهم الماء فتروي الحدائق والمنازل وعندهم منها عدد كبير.. والنهر عريض عند هذه المثابة تكثر على ضفافه أشجار الحور والصفصاف والدلب والزنزلخت والقصب، ويسمع صوت هاتيك النواعير أو السواقي من كل جهة. وتجري

في النهر زوارق صغيرة يستأجرها بعض المتنزهين. وقد متعنا الأنظار بكل هذه المشاهد في وادي نهر العاصي وعدنا من حماة إلى مصيف صوفر الذي كان مقراً لنا مدة هذه الرحلة..»

وفي ثلاثينيات القرن العشرين زارها (أحمد وصفي زكريا)[1] واصفاً واقعها الأخير بقوله:

هـذي حمـاةُ مدينـةٌ سحريّـةٌ
وأنـا امرؤ بجمالهـا مسـحورُ

يا ليت شعري ما أقول بوصفها
وحمـاة شـعرٌ كلّهـا وشـعورُ

«أما الزوارق فقد أدركنا منها أثراً ضئيلاً، كان قاصدها النزهة من الحمويين، يركبونها من جسر المراكب، الذي صار يدعى جسر السرايا، حيث العاصي زائد العمق في الجملة، يذهبون إلى مكان في شرقي البلد يدعى (البشريات) نسبة إلى (دفين) بجانبها يسمى الشيخ بشر، فيه ناعورتان كبيرتان تسقيان البساتين، ولم يبقَ في حماة

---

(١) أحد الشعراء العرب الذين زاروا مدينة حماة وافتتنوا بجمالها.

من الفواكه التي ذكرها ابن بطوطة وشيخ الربوة إلا نادر، وفُقد منها المشمش اللوزي الذي مازال موجوداً في دمشق والقطر المصري ومعروفاً بالحموي، وناب عنه صنف من المشمش الطيب يسمونه (المُشبه).

نعم تلك حماة المدينة الساحرة التي ذكرها (الرحالة ابن سعيد الأندلسي)[1] في قوله:

«منذ خرجت من جزيرة الأندلس، وطفت في برِّ العدوة ورأيت مدنها العظيمة (كمراكش وفاس وسلا وسبتة) ثمَّ طفت في أفريقيا وما جاورها من المغرب الأوسط فرأيت بجاية وتونس، ثمَّ دخلت الديار المصرية فرأيت الإسكندرية والقاهرة والفسطاط، ثمَّ دخلت الشام فرأيت دمشق وحلب وما بينهما. لم أرَ ما يشبه رونق الأندلس في مياهها وأشجارها إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ومدينة دمشق بالشام، وفي حماة مسحة أندلسية.

---

(١) رحالة أندلسي زار العديد من البلدان والمدن وكتب عن أخبارها.

حماة وشاعرها البارودي[١]



كما اشتهرت حماة بجمال طبيعتها وسحر نواعيرها فقد اشتهرت أيضاً برجالها وشعرائها، وهنا لا بدَّ أن تكون لنا وقفة متأملة مع أبرز مشاهيرها المعاصرين، إنه الطبيب

(١) وجيه البارودي: ولد في حماة عام ١٩٠٦م. تلقى علومه في حماة، وتخرج من الجامعة الأمريكية ببيروت طبيباً. وعمل في هذه المهنة. أسس مع إبراهيم طوقان وحافظ جميل وعمر فروخ دار الندوة في بيروت عام ١٩٢٦م – عضو جمعية الشعر.

الشاعر وجيه البارودي. فماذا عن هذا الوجه الحموي الشهير ؟؟؟

في رحاب الجامعة الأمريكية، تكونت شخصيته بأبرز ملامحها وسماتها، وأهمُّ ما أثَّر في حياته خلال هذه المرحلة الدراسية أنه فجع بوفاة أمه عام (١٩٢٣م)، وهو في السابعة عشرة من عمره، وخلفت له أربع أخوات أصبحن بلا سند ولا معين، بعد أن تزوّج الأب، وكان أن حُرِم وأخواته الدعم المالي والمعنوي، فكان عليه أن يستقطر الندى من الصخر وأن يستنبت الزهر من رمال الصحراء. وفي ذلك يقول:

خرجت أشقُّ طريق الحياة

بسيف اليقين ودرع الثبات

وحيداً أناضل .. لا والدٌ

معينٌ ، وأميَ في الهالكات

وفي هذه الرحاب، نهل من مكتبة الجامعة الكبيرة الحافلة بكنوز التراث وروائع الأدب العربي في الوطن والمهجر ما

استطاع النهل، وفي هذه الرحاب وخلال المرحلة تعرف إلى الطالب الفلسطيني إبراهيم طوقان[1] والطالب العراقي حافظ جميل، والطالب اللبناني عمر فروخ[2]، وكونوا معاً جمعية أسموها (دار الندوة) عام ١٩٢٦م، وفي العام نفسه صدح وجيه بأول مقطوعة شعرية، فبدأ بداية عملاقة من دون محاولات أولية، فقال:

قالت: ألستُ ملاك الحسن، قلت لها:
أنتِ الملاك ولكن شانك القِصَرُ
فأطرقت يتلظى خدها خجلاً
والدمع في طرفها المكحول منحصرُ
تقول هَبْ قِصَري ذنباً أثِمْتُ به
أليس ذنب حبيب القلب يغتفرُ
فأفحمتْني بإعجاز وددت له
لو أنني أبداً أشكو وتعتذرُ

وافتتح أول عيادة له في مدينة حماة، في السابع من آب

---

(١) إبراهيم بن عبد الفتاح طوقان، شاعرٌ من أهل نابلس (بفلسطين) برع في الأدبين العربي والإنكليزي، وكان وديعاً مرحاً. له ديوان شعر.

(٢) عمر فروخ، باحث معاصر، عضو المجمع العلمي العربي في دمشق.

/ ١٩٣٢م/ طبيباً ممارساً عاماً يكدح في سبيل لقمة زوجه وأولاده وأخواته، وعاش البارودي مع مجتمع حماة منذ ثلاثينيات القرن العشرين حتى تسعينيَّاته، متمرداً ثائراً، وعاشقاً متفانياً، وطبيباً إنسانياً، وشاعراً متفرداً، حتى أضحى علماً بارزاً من أعلام المدينة.

وحين سئل الشاعر وليد قنباز عن حماة في إحدى اللقاءات في التلفاز، قال: حماة هي العاصي والنواعير ووجيه البارودي.

راقت هذه العبارة شاعرنا الطبيب، فصاغها شعراً غير مرة، إذ يقول في واحدة منها:

قال الوليد: حماة تنتظر الوفو

د السـائحين لأمتـع النزهـاتِ

للوافديـن إلى حمـاة ثـلاث آ

يـاتٍ هـي الإعجـاز في الآيـاتِ

جنـاتُ عاصيهـا ، وثانيهـا نـوا

عيـرٌ ، وثالثهـا طبيـب حمـاةِ

لقد غنّى البارودي كلّ لحن، واكتسب من بعض عظماء الشعراء أحسنَ ما اتصفوا واشتهروا به، فمن (عمر ابن أبي ربيعة)[1] أخذ الولوع والمغامرة، واكتسب من (مجنون ليلى)[2] الرقة والأسى، ومن (البحتري)[3] الوصف والإشراق، ومن (ابن الرومي)[4] الدقة والبعد، ومن «أحمد شوقي» الإلمام والوضوح، فلبست قصائده ومقطوعاته ثوب عصرها، فقد زخرف وزيّن هذه القصائد بأجمل النوادر التي رسمها في شعره، ومما يتميز به وجيه البارودي إبداع الصور الفكاهية، والنوادر والطرائف التي تتوالى يومياً، والتي يتناقلها الحمويون وسواهم في المدينة والريف.

---

(١) عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، من بني مخزوم ويكنى أبا الخطاب.

(٢) قيس بن الملوح بن مزاحم العامري، شاعر غزل، من المتيمين، من أهل نجد.

(٣) الوليد بن عبيد الله بن يحيى الطائي، أبو عبادة البحتري، شاعر كبير، يقال لشعره «سلاسل الذهب» ولد بمنبج ثم رحل إلى العراق وتوفي بمنبج.

(٤) علي بن العباس المعروف بابن الرومي، من فحول شعراء العصر العباسي.

وهل ينسى أهل حماة منظره داخل سيارته وهو يسير على رصيف الشارع، وعندما استغربوا تصرفه قال: «إذا كان اللي ماشين في الشارع ما بيتزحزحوا مهما زمرتلهم فلازم تطلع تمشي على الرصيف».

ومن كلماته الطريفة والعلمية في آن واحد، والتي يردّدها منذ ستين عاماً «اللي بياكل تازة ما بيتآزا» وقوله: «نظم الواصل، وفرغ الحاصل، بتبرا المفاصل».

وأخيراً البارودي شاعر وجداني مبدع، قيثارةٌ متنوعة الأوتار، فيها وترٌ رفاف الجناح خصيب النغم هو وتر الاجتماع، على أن ريح الشاعر لم تكن في قصائده الاجتماعية لينة الهبوب، فهو على أشد ما يكون اكفهراراً، وأشد ما يكون مضاء، فهو ثائر يقاوم الوثنية في كل شيء.

الفهرس

يوزع مجاناً
مع مجلة
أسامة
العدد (٥٧)

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب
منشورات الطفل
كتاب شهري للناشئة

حماة
مدينة أبي الفداء



إعداد : أحمد عكيدي